

DOI: 10.54240/2318-012-002-014

الرياضة والألعاب التدريبية العسكرية في الدولة المملوكية:

رياضات وألعاب الفروسية أنموذجا

Sports and military training games in the Mamluk state: equestrian sports
and games as a model

اسم المؤلف المرسل: بومدين هشام نمر- Boumadiene Hichem Nemer صص 241-263
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر ب- جامعة وهران1 أحمد بن بلة- الجزائر.
البريد الإلكتروني: hichem19892009@hotmail.fr

تاريخ استقبال المقال: 2022/05/24... تاريخ المراجعة: 2022/06/05... تاريخ القبول: 2022/06/11...

الملخص: تعتبر الدولة المملوكية من أبرز الدول الإسلامية التي قامت في المشرق الإسلامي، وكانت مصر والشام والحجاز الحيز الجغرافي الذي شغلته هذه الدولة؛ وأصل هذه الدولة ونشأتها ترجع إلى أولئك الرقيق البيض الذين استجلبهم السلاطين الأيوبيون، وحرصوا على تربيتهم تربية إسلامية وتعليمهم وتكوينهم تكويناً عسكرياً صارماً جعل منهم قوة قادرة على التصدي لجميع المحاولات والترصصات التي أحاطت بالدولة سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية؛ غير أنه قدر لدولة الأيوبيين أن تنتهي سنة 648هـ/1250م، وتحل محلها الدولة المملوكية بتولي أول مملوك سلطان وهو عز الدين أيبك الذي تزوج شجرة الدر أملة آخر السلاطين الأيوبيين، واستطاعت هذه الدولة الاستمرار لما يزيد عن القرنين ونصف، حتى سقوطها على يد العثمانيين سنة 922-923هـ/1516-1517م؛ أثبتت خلالها قدرة وتفوقاً عسكريين خاصة خلال حروبها ضد المغول والصليبيين، إذ أن تلك المهارة العسكرية والفروسية اقترنت بالتدريب والتمرين المحكم والجيد، كما ارتبطت تلك الرشاقة وفتولة العضلات بممارسة مختلف الألعاب والأنشطة الرياضية المعروفة والشائعة آنذاك؛ ومن هذا المنطلق اخترنا أن يكون عنوان مداخلتنا كالتالي: "الرياضة والألعاب التدريبية العسكرية في الدولة المملوكية: رياضات وألعاب الفروسية أنموذجاً"؛ سنركز في هذه المداخلة الحديث على أنواع معينة من الألعاب والنشاطات والممارسات الرياضية التدريبية المتعلقة

بالفروسية، التي كانت معروفة ورائجة في دولة المماليك، وقد وقع اختياري على أربع منها وهي: اللعب بالكرة والصولجان، المقامطة بالأيدي والصراع فوق الخيل، رمي القبق، اللعب بالرُمح.

الكلمات لمفتاحية: الرياضة؛ الألعاب؛ الفروسية؛ التدريب؛ الحياة العسكرية؛ الجيش؛ المماليك؛ الأيوبيون؛ مصر؛ الشام؛ المماليك البحرية؛ المماليك البرجية.

Abstract : *The Mamluk state (648-923AH/1250-1517AD) is considered one of the most important Islamic states that existed in the Islamic East; Egypt, the Levant and the Hijaz were the geographical space occupied by this state; The origin of this state and its creation can be traced back to the white slaves who were brought by the Ayyubid sultans; The first of the Mamluk sultans was Izz al-Din Aybak, who married Shajar al-Durr, the widow of the last Ayyubid sultans.*

The Mamluk state demonstrated its military capability and superiority especially in its wars against the Mongols and Crusaders; This military superiority and skilful chivalry are the result of careful and good training; In this article, I will focus on specific types of equestrian sports, activities, and training practices, What was well known and popular in the Mamluk state; I chose four: Polo, The fight on horseback and tangle of hands, Throw "al-qabq" with darts, play with spear.

Keywords: Sports; Games; Equestrian; training; military life; Army; Mamluks; the Ayyubids; Egypt; Levant; Bahriyya Mamluks; Mamelouks Burgi.

المقدمة: ترتبط الفروسية بالرياضة ارتباطا وثيقا منذ غابر الأزمان، فمادام أن الرياضة تعتمد على النشاط الحركي للإنسان، فإن الفروسية إضافة إلى اعتمادها عليه فإنها تركز على قدرة التحكم في حركة الفرس، ومحاولة القيام بحركات بارعة برشاقة والتفنن فيها على ظهره تلفت الانتباه وتثير الدهشة، فتدخل في إطار المنافسة والتدريب، والترفيه والحرب.

انطلاقا من هذه الفكرة وجدت بأن الدولة المملوكية في مصر والشام تعد نموذجا هاما في تاريخ رياضات وألعاب الفروسية، بل يمكن القول باعتباري إياها بمثابة مدرسة قائمة بذاتها في هذا الميدان بحكم أصول وطبيعة المماليك من جهة، والظروف التي كانت تمر بها المنطقة من جهة أخرى ممثلة في حروب كل من الصليبيين والمغول، التي استغرقت وقتا ليس بالقصير.

من هنا اخترت أن يكون عنوان مداخلتي كالتالي: "الرياضة والألعاب التدريبية العسكرية في الدولة المملوكية: رياضات وألعاب الفروسية أنموذجا"، وإن الهدف من إنجاز

هذا الموضوع يرمي إلى محاولة إبراز دور الممالك في تطور رياضات وألعاب الفروسية، حيث كانت الفروسية عماد الجيش المملوكي، وبالتالي فإن تلك الأهمية التي أولوها لها كانت من أجل رسم الجهاد بدرجة أولى، وهذا ما أسهم في تطور الحركات والأساليب، وابتكار الألعاب والرياضات.

وعليه أ طرح الإشكال المحوري الآتي: ما مدى أهمية رياضات وألعاب الفروسية في التدريبات العسكرية في دولة الممالك؟ أما التساؤلات الفرعية فهي كالتالي: ماذا تعني كلمة ممالك؟ متى بدأ استخدامهم في الدولة الإسلامية في بلاد المشرق، ومتى قامت دولتهم؟ ما مدى عناية السلاطين الممالك وقبلهم الأيوبيين بتعليم وتدريب الممالك؟ وما مكانة الفروسية في دولة الممالك (سلطة ومجتمعاً)؟ ما هي أبرز رياضات وألعاب الفروسية المرتبطة بالتدريب العسكري في دولة الممالك؟

جمعت هذه الدراسة في ثناياها بين عدة مناهج نظراً لطبيعتها، فاشتملت على المنهج التاريخي، كونها دراسة تدخل ضمن الحيز التاريخي، حيث أنني سأؤرخ لتاريخ الرياضات والألعاب التدريبية العسكرية المتعلقة بالفروسية في دولة الممالك، فضلاً عن إيراد بعض الأحداث السياسية والعسكرية وفترات حكم السلاطين... إلخ؛ كما اشتملت أيضاً دراسية على المنهج الوصفي، وذلك من خلال وصف هذه الألعاب والرياضات، وكيفية القيام بها، مدعماً هذا الوصف بصور توضيحية لهذه الرياضات والحركات، إضافة إلى المنهج التحليلي القائم على الاستنتاج والرأي الشخصي الذي لابد للباحث من إبدائه، حتى تكون هذه الدراسة في مصاف الدراسات العلمية الأكاديمية.

1- التعريف بالممالك ولمحة تاريخية عنهم:

1-1 التعريف اللغوي: ممالك جمع مفردة مملوك، وهو اسم مفعول لفعل (مَلَكَ)، حيث وردت عبارات في القرآن الكريم قريبة في الشكل والمعنى من هذه الكلمة¹، منها: ﴿مَلَكْتُ أَيْمَانُكُمْ²﴾، ﴿مَلَكْتُ أَيْمَانُهُمْ¹﴾، ﴿مَلَكْتُ يَمِينُكَ²﴾، فهذه العبارات كما يُفهم تدل على المَلِكِيَّة، والمملوك المقصود فيها إنسان؛ أي الفاقد للحرية لصالح غيره.

1- فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس، طرابلس، ط1، 1415هـ/1995م، ص55.

2- ينظر: سورة النساء، الآية 25.

2.1 التعريف الاصطلاحي: اتخذت كلمة مملوك معنى خاصا في التاريخ الإسلامي، بحيث أن المقصود بالممالك الرقيق الأبيض، الذين كانوا يصبحون رقيقا نتيجة الأسر في ميادين الحرب، أو من خلال الشراء من التجار الذين كانوا يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية رغبة في بيعهم بأسعار مرتفعة؛ غير أن هذا اللقب اقترن فقط بالرقيق الأبيض دون السود... أما البلاد التي كانوا يُستجلبون منها فتشمل بلاد الترك في وسط آسيا، وأنحاء كثيرة من بلاد أوروبا كبلاد بحر البلطيق، لكن كان هؤلاء الممالك يعتبرون أنفسهم أتراكا، فكانوا يفتخرون بهذا الانتماء؛ بحكم أن الذين برزوا منهم، وتولوا المناصب الرفيعة في الدولة الإسلامية، وكان لهم دور هم أولئك الذين ينحدرون من أصل تركي³.

كان السلطان المملوكي عز الدين أيبك⁴ من أصل وجنس تركي، معروفا بين البحرية بالتركماني، بينما كان قُطُز⁵ مغوليا على الرغم من ادعائه بأنه ابن أخت خوارزم شاه، أما بيبرس⁶ فكان مولده بأرض القبحاق، ووصل إلى القاهرة من سوق الرقيق بسيواس، وكذلك كان قلاوون⁷؛ هذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن جميع سكان تلك المناطق اعتبروا من الأتراك؛ لأن غالبيتهم كانوا ينتمون إلى العنصر الطوراني الذي يشترك فيه الترك والمغول والتتار.

1- سورة المؤمنون، الآية 6.

2- سورة الأحزاب، الآية 52.

3- فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص55.

4- التركماني الصالحي النجفي، بوع بالسلطنة بعد خلع شجرة الدر، يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة 648هـ، وتلقب بالملك المعز؛ وركب بشعار السلطنة... كان أصله من ممالك الملك الصالح نجم الدين أيوب، حيث اشتراه وأعتقه، وصار أميرا في حياة أستاذه الملك الصالح؛ ثم أصبح أتابكا للعسكر بعد قتل الملك المعظم توران شاه، فسلطانا بعد خلع شجرة الدر من السلطنة. أبو البركات زين العابدين محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1404هـ/1984م، ج1-ق1، ص288.

5- هو ثالث سلاطين الممالك بالديار المصرية، وأصله من ممالك المعز أيبك التركماني؛ قيل بأنه لم يكن من الرقيق إنما من سبایا التتر، وقدم إلى الملك المعز فزقي حتى صار أتابكا للعساكر بمصر، ثم أصبح سلطانا لها سنة 657هـ/1259م؛ وقد قال هو عن نفسه بأنه مسلم ابن مسلم، كان اسمه محمود بن ممدود، وخاله خوارزم شاه، فهو من أولاد ملوك الشرق، ويرجع إليه الفضل في هزيمة المغول في عين جالوت، قتله الظاهر بيبرس سنة 658هـ/1260م، دامت سلطنته سنة إلا أياما. ينظر: ابن إياس، المصدر السابق، ج1-ق1، ص303-308.

6- هو رابع سلاطين الممالك، جلس على عرش السلطنة بعد مقتل قُطُز، تولى يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة سنة 658هـ/1260م، تركي الأصل، كان مولده ببلاد القبحاق سنة 620هـ، وشبي وهو صغير، فأخذ من بلاده وبيع بدمشق لشخص يقال له العماد الصايغ، ثم بعد مدة اشتراه منه الأمير علاء الدين أيديكين المعروف بالبندقداري، الذي سيدرك سلطنته ويصبح من جملة أمرائه؛ توفي سنة 676هـ/1277م؛ كانت مدة سلطنته سبع عشرة سنة وشهرين ونصف. ينظر: ابن إياس، المصدر السابق، ج1-ق1، ص308-338.

7- السيد الباز العريبي، الممالك، دار النهضة العربية، بيروت، دت، ص56.

وإذا أردنا أن نبحث عن نموذج مماثل للرقيق البيض في التاريخ الإسلامي، فهناك نموذج آخر كان له نفس الدور تقريبا، وهم الصقالبة، فهذا المصطلح قصد به الرقيق البيض الذين شاع استخدامهم في بلاد الأندلس منذ عهد الدولة الأموية، ولكن هؤلاء لم يكونوا من الأتراك، وإنما كان بعضهم من أمة السلاف، والبعض الآخر من مختلف البقاع الأوروبية، لكن غلبت عليهم جميعا تسمية الصقالبة.

3.1- بداية استخدام المماليك وقيام دولتهم: بدأ استخدام المماليك في الدولة الإسلامية مع العباسيين، فكان أول من استخدمهم في بلاطه هو الخليفة المأمون (198-218هـ/813-833م)، كما نشط استجلابهم في عهد المعتصم (218-227/833-842م) الذي استكثر من العنصر التركماني والتركي، فشكل منه فرقا عسكرية أحاط نفسه بها نتيجة ازدياد نفوذ الفرس وضعف ثقته في العرب؛ وقد سار الخلفاء الذين جاؤوا من بعده على هذه السياسة فاعتمدوا على المماليك في جيوشهم واتخذوا منهم حرسا¹؛ لأن المملوك من النادر جدا أن يُشترى بالمال، أو يتم إغراؤه ضد صاحبه أو سيده، فولأوه المطلق له.

وكان يؤتى هؤلاء المماليك آنذاك من بلاد ما وراء النهر؛ حيث اشتهرت مدن سمرقند، وفرغانة، وأشروسنة، والشاش، وخوارزم، بأنها المصادر الرئيسة لتصدير الرقيق الأبيض ذوي الأصول التركية، وتم ذلك بواسطة: الشراء، الأسر في الحروب، الإهداء من طرف ولاية أقاليم بلاد ما وراء النهر إلى خلفاء الدولة العباسية².

استخدم الطولونيون في مصر المماليك، الذين زاد عددهم عن أربعة وعشرين ألفا في عهد أحمد بن طولون (220-270هـ/835-884م)³، وكانوا من الأتراك، مقابل أربعين ألفا من السود، وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة؛ وقد اتخذ الطولونيون منهم أيضا جندا وحرسا لهم؛ وسار على نهجهم بعد ذلك الإخشيدون: فمحمد بن طفح الإخشيد (268-334هـ/882-

1- فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص59/ محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت- لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ص15.

2- نفسه، ص16.

3- أحمد بن طولون، أبو العباس، صاحب الديار المصرية والشامية والنفوس، من أصل تركي؛ ولد بسامراء حيث تفقه وتأدب، ثم دخل في خدمة الخليفة المتوكل، فولي إمرة النفوس وإمرة الشام، ثم مصر سنة 854هـ: بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة، ومن آثاره أيضا: قلعة يافا بفلسطين. خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، مج1، ص140.

946م)¹ كان جيشه يتألف من ممالك أترك وديلمة²؛ كما اعتمد العبيديون (الفاطميون) على جيش يتألف من عناصر مختلفة، كان بعضهم من الممالك، فضم هذا الجيش: الديلم والغز³ والسودان والبربر؛ حتى يتمكن العبيديون من بسط سيطرتهم على المشرق الإسلامي ومجابهة العباسيين والانتصار عليهم⁴.

نشطت حركة جلب الممالك من البلاد التي خضعت للسيطرة المغولية، بواسطة مختلف التجار، وكان من أبرز الذين اهتموا بشرايتهم أبناء الأسرة الأيوبية، الذين حرصوا على جلب أكبر عدد ممكن منهم؛ من أجل إنشاء فرق عسكرية منهم لخوض حروبهم الداخلية؛ وكان الصالح أيوب ابن السلطان الكامل⁵ من أكثر أفراد هذه الأسرة الحاكمة شراء لهم، وذلك بعد أن تبين له الفساد الذي دب في أوساط الخوارزمية وفشلهم في القيام بمهامهم، وبهذا لا يمكن الاعتماد عليهم؛ فأراد أن يصطنع منهم بطانة تحيط بدهليزه، فأطلق عليهم تسمية البحرية؛ وهذا حتى يتمكن أيضا من تثبيت نفسه في ولاية العهد⁶، "فاشترى من الممالك الترك ما لم يشتر أحد مثله من قبل، حتى عاد أكثر جيشه

1- مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر والشام، وهو تركي الأصل كذلك، الزركلي، المرجع السابق، ج 6، ص 174.

2- نسبة إلى الديلم، الذي يتصل به من ناحية الجنوب قزوین والطرم وشيء من أذربيجان وبعض الرئ. أما من ناحية الشرق فيتصل به بقية الرئ وطبرستان، ويتصل به شمالا بحر الخزر، ومن جهة الغرب شيء من أذربيجان وبلدان الران، وأضاف الاصطخري إلى ذلك ما يتصل به من جبال الروينج وقادوسيان وجبال قارن وجرجان. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخري، كتاب مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1937م، ص 204.

3- هم طائفة من الترك، كانوا بما وراء النهر، ثم قصدوا خراسان، وكانوا كفاراً، وكان من أسلم منهم وخالط المسلمين، يصير ترجماناً بين الفريقين، فحورت ترجمان إلى تركمان بالكاف العجمية، وجمع على تراكمين، ثم أسلم الغز جميعهم؛ ويذكر أحد المراجع أنهم خضعوا في البداية للصين ثم استقلوا عنها، ومع انهيار إمبراطورية الأتراك في القرن الثامن الميلادي تفرقوا في مناطق مختلفة، فسكن بعضهم مناطق الأورال والقوقاز بعد طرد قبائل البجناك منها، وهناك بدأ اتصالهم بالروس، الذين أطلقوا عليهم تسمية تركي Torki. للتفاصيل ينظر: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط 1، د.ت، ج 3، ص 26/ زبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى بينزطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، مصر، د.ت، ص 22-26.

4- فايد حماد محمد عاشور، ص 59-60/ سامي عبد الله بن أحمد المغلوث، أطلس تاريخ العصر المملوكي، العبيكان للنشر، الرياض، ط 1، 1434 هـ/ 2013 م، ص 16.

5- هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب؛ سابع سلاطين بني أيوب بمصر، حكم من سنة 636 هـ/ 1239 م إلى وفاته سنة 647 هـ/ 1249 م، ابن إياس، المصدر السابق، ج 1-1، ص 269، 278.

6- السيد الباز العربي، المرجع السابق، ص 55.

مماليكه، وذلك لكثرة ما جرب من غدر الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش¹؛ فأقام لهم هذا السلطان ثكنات عسكرية خاصة بهم في قلعة الروضة التي أنشأها بجزيرة² تُعرف بهذا الاسم سنة 638هـ/1240م، حتى تكون مقرا ومستقرا لجيشه الجديد؛ من أجل ذلك سمو الممالك البحرية، وكانت هذه القلعة تتألف من ستين برجاً وجامعاً، كما شحنها بالأسلحة والعتاد، ولما انتهت أعمال البناء انتقل إليها رفقة أسرته ومماليكه³.

تبدأ دولة الممالك في مصر مع الأمير أيك المنتخب من قبل بعض أقرانه من الأمراء ليدبر شؤون الدولة بعد مقتل توران شاه ابن السلطان الصالح أيوب، وذلك بعد مؤامرة دبروها بسبب إطلاقه سراح الملك لويس التاسع من الأسر، وكانت قد اشتركت في هذه المؤامرة زوجة أبيه شجرة الدر⁴، لكن الخليفة العباسي رفض أن تتولى زمام الحكم امرأة، وكان حكم أيك باسم السلطان فقط، ونتيجة لذلك لم تجد السلطانة سوى وسيلة واحدة وهي الزواج من أيك؛ وبعد سلسلة من الأحداث والصراعات بين أيك وبين أيوبي الشام، وبينه وبين الممالك المناوئين لحكمه، استطاع في الأخير أن يثبت قدميه في السلطة ويغدو سلطان مصر الجديد الذي لا ينازعه في الحكم أحد، مؤسساً دولة الممالك الأولى⁵.

ينقسم عصر الممالك في مصر إلى مرحلتين أو دولتين: الأولى هي دولة الممالك البحرية (648-784هـ/1250-1382م) التي بدأت مع السلطان عز الدين أيك كما بينا، وانتهت مع

1- أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدَّوَّاداري، كنز الدرر وجامع الغرر «الدر المطلوب في أخبار بني أيوب»، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391هـ/1972م، ج 7، ص 370/سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والممالك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م، ص 177.

2- هي إحدى ثلاث جزر في نهر النيل بين القاهرة والجيزة، ترتبط في وقتنا المعاصر بالقاهرة بخمسة كباري، وبالجيزة بكوبريين. ينظر: المغلوث، المرجع السابق، ص 16.

3- فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 60.

4- هي عصمة الدين أم خليل شجرة الدر الصالحية سلطنة مصر المستعصمة ملكة المسلمين، كانت زوجة الملك الصالح، قامت بتدبير شؤون الدولة، ونقشت اسمها على السكة، تزوجها الأمير عز الدين أيك التركماني، ونزلت له عن السلطنة؛ قُتلت رمياً من سور القلعة. أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئ، دار صادر، بيروت، د.ت، ج 2، ص 237/ الحسن بن أبي محمد عبد الله بن عمر الصَّقَّدي، نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك «يؤرخ من عصر الفراعنة والأنبياء حتى سنة 717هـ»، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1424هـ/2003م، ص 147/ابن إياس، المصدر السابق، ج 1-ق 1، ص 286-287.

5- وليم موير، تاريخ دولة الممالك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1، 1415هـ/1995م، ص 42-43.

السلطان الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين (783-784هـ/1381-1382م)¹، من مميزاتهما: الجهاد ضد الفرنجة وتحرير المشرق منهم، وصعد الغزو المغولي²؛ أما الثانية فهي دولة المماليك البرجية (الجراكسة) (784-923هـ/1382-1517م) التي بدأت مع السلطان برقوق الشركسي (784-790هـ/1382-1388م) وانتهت مع السلطان الأشرف طومان باي الثاني (922-923هـ/1516-1517م)³.

2- عناية السلاطين الأيوبيين والمماليك بتعليم وتدريب المماليك الرقيق، ومكانة الفروسية في دولتهم:

1.2- العناية والاهتمام بتعليم وتدريب المماليك الرقيق: اهتم السلاطين الأيوبيون ثم من بعدهم السلاطين المماليك بعد قيام دولتهم بتربية المماليك الرقيق تربية إسلامية، فكانوا يتلقون تعليما وثقافة إسلاميين، فيتعلمون القراءة والكتابة، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، والوقوف على معالم السيرة النبوية المشرفة؛ وبعد نيل هذا النصيب اليسير من العلم ينتقلون إلى مرحلة التدريب العسكري وتعلم أساليب الحرب وفنون القتال⁴، وكان تعليمهم الحربي يتم في "الطباق"^{5 6}.

هكذا نلاحظ بأن تعليمهم كان أوليا؛ أي يقوم على المبادئ فقط، لأن الغرض الأول من وجودهم ونشاطهم الأساسي يركز على الحركة في الميدان بالدرجة الأولى، وهذا التعليم اليسير البسيط هو فقط من أجل الإفادة خلال المراحل القادمة من عملهم في الجيش وتولي بعض المسؤوليات والقيام بها؛ ويبدو لي بأن عادة تعليم وتدريب المماليك هي عادة أخذها السلاطين المماليك عن سابقيهم الأيوبيين، كما أخذها هؤلاء عن من سبقهم؛ فهي في حقيقة الأمر ضرورة حتمية يجب مراعاتها والعمل بها؛ لأن تعلم المملوك للقراءة والكتابة

1- المغلوث، المرجع السابق، ص14.

2- حول تفاصيل جهاد المماليك ضد الصليبيين والمغول ينظر: فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص368.

3- المغلوث، المرجع السابق، ص ص169-170.

4- فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص56.

5- جمع طبقة، وهي ثكنات الجيش المملوكي بالقلعة، حيث كانت كل طبقة تضم أبناء الجنس الواحد من المماليك. أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ج2، ص509/ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر- دار الفكر، بيروت- دمشق، ط1، 1410هـ/1990م، ص105.

6- لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر السلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م ص184.

وشيء من الشريعة الإسلامية والسيرة النبوية حق من حقوق المملوك على مالكة، وواجب من الواجبات الدينية الرسمية المنصوص عليها، أما تدريبه على الفروسية وفنون القتال وما يرتبط بالحرب؛ فلأن الغاية الأولى هي تشكيل جيش منظم قوي قادر على التصدي للأخطار الخارجية عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ¹، ومجاهمة الأزمات الداخلية.

خلال مرحلة التدريب العسكري كان يتم تقسيم المماليك إلى فرق وطوائف، كل طائفة يقوم عليها معلم²، فيسهر على تعليمهم وتدريبهم على عدة رياضات وفنون حربية: كالسباحة وركوب الخيل واللعب بالسيف والضرب بالرماح والقذف بالأطواق والمبارزة ورمي النشاب ولعب الكرة بقصد إصابة الهدف؛ بهذا يكون الجندي كاملاً ملتزماً بالطاعة واتباع الأوامر مستعداً لتنفيذها على أكمل وجه؛ وإذا ما ظهرت شجاعته وبراعته في فنون القتال فإن هذا يؤدي إلى عتقه، كما يؤهله لتولي عدة وظائف في الدولة وصولاً إلى أعلاها: كوظيفة نيابة السلطان، أو إمرة الجيش، أو منصب السلطنة إذا اقتضى الأمر³؛ فالأداء الجيد والبراعة الحربية هي التي أهلت العديد منهم للوصول إلى عرش السلطنة، وهذا ما يعني بأن دولة المماليك كانت عسكرية بالدرجة الأولى.

من بين أشهر السلاطين والأمراء والقواد المماليك الذين برعوا في فنون الفروسية: السلطان الظاهر بيبرس الذي كان حاذقاً في رمي السهام ومشهوراً في الفروسية، وكان يحرض الناس على الرمي والنضال؛ السلطان الظاهر برقوق (784-790هـ/1382-1388م*792-801هـ/1390-1399م)، الذي مهر في الفروسية، خاصة في رمي الرُمح؛ والسلطان جقمق (842-857هـ/1438-1453م) الذي كان عارفاً بأنواع الفروسية؛ كما كان الأشرف قايتباي (872-901هـ/1468-1496م) يحرص على تعليم الفروسية لمختلف فئات المجتمع المصري، سواء كانوا من المماليك أم من عامة الناس، فكان يمتحنهم؛ واشتهر

1- سورة الأنفال، الآية60.

2- ومن أشهر معلمي وأساتذة فنون الفروسية، نذكر: الأمير آخور الكبير المعروف بسودون طاز (ت.805هـ/1403م)، الذي كان رأساً في لعب الرُمح، يُضرب بقوة طعنه، وشدة ثباته على الفرس المثل، وأما سرعة حركته وحسن تسريحه لفرسه في ميادين اللعب بالرُمح فإليه المنتهى في ذلك؛ فرقمّاس المحمدي الظاهري، الشهير بالمعلم، وكان عارفاً بفنون الرُمح علامة في ذلك. لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، صص185-186.

3- فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص56.

السلطان المؤيد شيخ المحمودي(815-824هـ/1412-1421م) في الرماية واللعب بالرُمح والمبارزة، فذكر المؤرخون أنه "تعلم الفروسية من اللعب بالرُمح ورمي النشاب والضرب بالسيف ومهر في جميع ذلك عندما كان عند برقوق بعد أن قدمه تاجرهم محمود إليه في أول حياته"؛ وفي عهد السلطان الناصر فرج (801-815هـ/1399-1412م) توفي الأمير سيف الدين قرقماس الإينالي الرماح سنة 805هـ/1403م، وكان رأساً في لعب الرُمح¹، هذه فقط بعض النماذج البارزة التي نحاول من خلالها أن نبين البراعة في الفروسية وفنونها لدى بعض السلاطين والأمراء المماليك.

يبدأ المملوك تدريبه وفقاً لقواعد الفروسية عندما يصل لسن الثامنة عشرة سنة قمرية من عمره؛ أي ما يقارب أربعة عشرة سنة شمسية، ويصف المقريري المملوك الذي أنهى تدريبه قائلاً: "تمجيد الإسلام والمسلمين يتم زرع في قلبه، ويصبح قويا في رمي السهام، وفي استخدام الرُمح وفي ركوب الخيل"؛ وتحتوي كلمة الفروسية العربية على ثلاث مهارات، فهي: علم وفن وأدب؛ فأصبح الفرسان خلال ذلك العهد يشكلون طبقة اجتماعية، وهذا ما نجده سائداً أيضاً في المجتمع الأوروبي الإقطاعي على الأقل منذ القرن التاسع الميلادي، لكن المماليك في مصر صقلوا هذا النظام وعملوا على تنظيمه وفق منهج مشابه لنظام الفروسية في الغرب الأوروبي؛ وأهم من ذلك هو أن المماليك ورثوا أساليب الفروسية والرياضة عن العباسيين، من خلال كتابة ونقل أعمال قواعد الفروسية عن الرياضة منذ أوائل العصر العباسي، مع عدم إدخال أي إضافات أو تعديلات على الموضوع، والتي كانت تساعد اللاعبين في بلاد فارس خلال القرن الثامن الميلادي، وغيرها... وهكذا استمد الكثير من المؤلفين الذين كتبوا حول الفروسية وفنونها ورياضاتها وأساليبها من أعمال سابقهم، فأشاروا إليها ومدحوا أصحابها وأثنوا عليهم²؛ لكن لا يجب أن نهمل دور البيئة التي ولدوا فيها (المماليك)، وهي بلاد آسيا الوسطى، التي كان سكانها من الترك فرساناً بطبيعتهم ينشؤون على ركوب الخيل وفنون الفروسية، فمن المحتمل جداً أن يكون العديد من هؤلاء

1- لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، ص 185، 189، 190، 191.

2- جيمس واترسون، فرسان الإسلام وحروب المماليك، تقديم: جون مان، ترجمة: يعقوب عبد الرحمان، مراجعة: حاتم الطحاوي، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2011م، ص164.

قد تمرنوا ونُشِئُوا على بعض فنون الحرب والفروسية في بلادهم الأصلية قبل وقوعهم في السبي.

وهذا ما أشار إليه القزويني في مؤلفه "البلاد وأخبار العباد"، الذي ذكر بأنهم (الترك) يمتازون عن بقية الأمم بكثرة العدد، وزيادة الجلالة (الصبر) والشجاعة وصورة السباع، عراض الوجوه فطس الأنوف عبل السواعد ضيقو الأخلاق، والغالب عليهم الغضب والظلم والقهر وأكل لحوم الحيوانات... يعيشون على الإغارة وصيد الحيوانات، حتى إذا تمكن منهم التعب والكلل عادوا إلى نشاطهم الأول الفروسية (ركض الخيل)¹، كما أن الألقاب التي تلقب بها سلاطينهم وأمراؤهم أو الأسماء التي تسموا بها تدل على القوة والجلد والشجاعة والبطولة والغلظة، ككتبغا ويعني: "الثور الضخم"، قرقماس ويعني: "الذي لا يخاف"، أقطاي ويعني: "المهر الضخم أو السريع"، بارسباي ويعني: "الأمير الفهد"، برقوق ويعني: "السهم القوي"، بيبرس ويعني: "الفهد الأمير"²...

مما جعل المماليك يتميزون كمدرسة عسكرية يمكن استخلاصها من معرفتهم بفنون وأساليب الحرب والقتال المتعددة، حيث كانوا محترفين لطرق القتال، فالقتال مهنتهم الأساسية، وقد تربوا عليها كما أشرنا منذ طفولتهم، فهم فرسان مدربين³، وهذا ما جعل من الفروسية فنا ورياضة ولعبة إذا مورست في أوقات السلم ادخرت إنجازاتها ومهاراتها لأوقات الحرب.

2.2 مكانة الفروسية في دولة المماليك: كانت الفروسية في عهد السلاطين المماليك من أهم وألزم الأمور التي على السلطان أن يتحلى بها، بل وأغلب المماليك -ولما لا جميعهم- فهي من تعطي الهيبة للسلطان صاحبها، كما تمنحه الخبرة العسكرية أيام الحرب، فتجعله بصيرا

1- زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، دت، ص 514.

2- عبد الله عطية عبد الحافظ، معجم أسماء سلاطين وأمراء المماليك بمصر والشام "من خلال ما ورد على عمائرهم وفي الوثائق والمصادر المحلية"، دراسات في آثار الوطن العربي، العدد 11، الاتحاد العام للآثارين العرب المنبثق عن اتحاد الجامعات العربية، أكتوبر 2008م، مج 11، ص 656، 667، 672، 673، 675.

3- هاني فخري عطية الجزائر، النظام العسكري في دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية الآداب، 1428هـ/2007م، ص 81.

بحيلها وقيادة جيشه وتنظيمه على حد تعبير العيني¹؛ كما كانت رياضة مهمة لا يمكن لأي مملوك أن يتجاهلها أو يستغني عنها، إذ يبدو بأن الظرف الذي ساعد على ممارستها ومزاولةها هو بلا شك التنشئة العسكرية لهؤلاء المماليك في ذلك الجو الحربي، فإذا كان بعض السلاطين قد أهملوا بعض الرياضات أو نقضوا (بمعنى: أفسدوا أو هدموا) ميادينها فلم يعيروها بالا، فإن الفروسية بالذات ظلت طوال العصر المملوكي الرياضة المتميزة، حتى أصبح من لا يجيدها محل نقد ومؤاخذه من طرف الأمراء والسلاطين، فكان يعاب عليه ذلك².

هذا ما دفع بأحد المستشرقين إلى القول بأن: "منحت سيطرة الفروسية والحرب على هاجس المملوك كغاية في حد ذاتها أكثر منها وسيلة لسلطة المجتمع العسكري شخصيته المتميزة. وبالإضافة إلى ذلك، وبالنظر إلى الجهاد كقيمة عليا، وقيمة الوفاء لرفاق الخشداشية³..."⁴.

لكن هذه العناية التي عرفتها الفروسية كرياضة وفن حربي من طرف المماليك صاحبها أو سبقها في العناية أمر آخر، ألا وهو الاعتناء بالخيول، الذي يعد الوسيلة الأولى والأساسية لممارسة جميع أنواع رياضات الفروسية، فنوعية الخيل من حيث السلالة والقوام، وتربيته من حيث الطعام والشراب والبيطرة والترويض كلها كانت محل اهتمام ونظر من طرف المماليك.

فاشتهر على سبيل المثال السلطان بيبرس بشدة الولع بسباق الخيل، فكان ينظم السباقات ويشرف عليها⁵، وكان السلطان الناصر محمد⁶ مشهورا بحبه للخيول العربية

1- أبو محمد بدر الدين بن أحمد العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، حققه وقدم له: فهد محمد علوي شلتوت وراجعه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1998م، ص229؛ لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، ص182.

2- العيني، المصدر السابق، ص181.

3- يُقصد بهم المماليك الذين نشأوا عند سيد واحد، وأصبحت تربط بينهم رابطة زمالة، وقد أصبح لهذه الرابطة أثر كبير على الأحداث التي عرفتها السلطنة لا سيما السياسية. محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص ص68-69.

4- جيمس واترسون، المرجع السابق، ص165.

5- المقرئزي، السلوك، ج1، ص561.

6- هو السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون تاسع سلاطين المماليك بالديار المصرية؛ ولد سنة 684هـ/1285م، وبويع بالسلطنة بعد أخيه الأشرف خليل، وحكم ثلاث مرات: الأولى (693-694هـ/1293-1294م)، الثانية (698-708هـ/1299-1309م)، الثالثة (709-741هـ/1310-1340م). ابن إياس، المصدر السابق، ج1-ق1، ص ص378، 386، 401، 422، 431، 483.

الأصيلة وباقتنائها، فكانت من جملة أفراسه فرس تدعى "بنت الكزنا" بلغ ثمنها ستمائة ألف درهم، قدمت إليه هدية من طرف محمد بن عيسى مهنا أمير العرب في بادية الشام¹؛ وشيدت الاصطبلات السلطانية وعين لها ناظر²، فخصصت السلطة المملوكية لها إدارة خاصة من شدة عنايتها بالخيول عرفت باسم "الركابخاناه"، التي اشتملت على عدد وفير من الاصطبلات؛ بل وفاق هذا الاهتمام الكبير أن أمرت السلطة سنة 792هـ/1390م أن لا يركب أحد من المتعممين في القاهرة وكافة أرجاء مصر فرسا سوى الوزير وكاتب السر والناظر الخاص، أما البقية فيركبون بغالا، وقد عملت السلطة على مصادرة الخيول الأصيلة من أصحابها؛ ومن شدة تعلق أمراء الممالك وقادتهم وفرسانهم بالخيول أنهم خصصوا لكل يوم فرس بلون معين، فكان الأدهم (شديد السواد) ليوم السبت، والأبيض ليوم الأحد، والأخضر ليوم الاثنين، والكُمَيْت (لون ليس بأشقر ولا أدهم، والكُمَيْت لون بين السواد والحمرة) ليوم الثلاثاء، والأبلق (وهو ما كان بياضه بين بين) ليوم الأربعاء، والأشقر ليوم الخميس، والمُحَجَّل (أن تكون قوائمه الأربع بيضاء أو ثلاث منها شريطة أن يكون من بينها رجل) ليوم الجمعة؛ يضاف إلى ذلك أن شدة الخوف على خيلهم دفعتهم إلى تعليق حروز وتماثيل تحتوي على بعض آي القرآن لحمايتهم وحراستهم، ما دفع بالشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت. 660هـ/1262م)³ إلى إصدار فتوى تقول ببطلان وبدعية هذا العمل بل وتعريض للكتاب العزيز⁴.

3- رياضات وألعاب الفروسية ضمن التدريب العسكري في دولة المماليك: شملت الفروسية المهارة في ركوب الخيل واللعب بالرُمح والحدق في الرمي والضرب بالسيف وسوق البرجاس والمحمل، ولعب الصولجان، واستعمال الدبوس والمران على المصارعة وسباق الخيل⁵، وقد وقع اختياري على أربعة أنواع منها:

1- المقرئ، السلوك، ج2، ص503.

2- نفسه، ج5، ص456.

3- أبو محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام، كتاب الفتاوى، خرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الرحمان بن عبد الفتاح، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م، ص100.

4- لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، ص ص182-184.

5- نفسه، ص184.

1.3- اللعب بالكرة والصولجان: هي لعبة فارسية الأصل؛ تسمى حاليا البولو، انتشرت شرقا وغربا، فمن بلاد فارس انتقلت شرقا فوصلت الهند والصين، وعن طريق اسطنبول واصلت انتشارها غربا نحو أوروبا¹؛ وهي من الرياضات التي نصح بها الحكماء والفضلاء الملوك ورجالهم، لما فيها من فوائد عظيمة جمّة منها: التدريب على ركوب أصناف الخيل، والانفتال، والخفة والرشاقة، السرور والفرح بالظفر والاستيلاء مع مباشرة التألم من العجز والغلبة، تعود الاجتماع، التدريب، مساعدة الأصحاب لبعضها، أو تعاضد الأولياء والأنصار وتعاونها على الخصوم والأعداء؛ لذا اعتبرت من طرف علماء الفروسية من أعظم أصولها منفعة لكل من طلب فنا من فنون الفروسية، لا سيما استخدام السيف والرُمح والرمي؛ لما يقع فيه من الكر والعطف والاختلاس والمناوشة وتأديب الدواب². وقد ينظر البعض إلى اللعب بالكرة والصولجان كلعبة ورياضة للترفيه فقط، لكنه وكما سبق وأن أشرت فإنها تُكسب الفارس مهارات وحيل الفروسية التي تساعد في ميدان الحرب، هذا من الناحية العملية، ولكن تكسبه أيضا مبادئ وصفات أخلاقية نبيلة كالتعاون والاتحاد، فضلا عن دورها من الناحية النفسية، إذ توجد داخل الفارس روح التحدي والمنافسة والسعي إلى الفوز.

لقد خُصصت لهذه اللعبة والرياضة ميادين من طرف السلاطين المماليك: كالميدان الظاهري بالبورجى بطرف أراضي اللوق؛ ويشرف على النيل، والذي استجده السلطان الظاهر بيبرس، وصار منذ ذلك الحين مقصد السلاطين للعب الكرة إلى غاية سنة 713-714هـ/1313-1314م؛ الميدان الناصري (الكبير أو السلطاني) الذي أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 718هـ/1318م، وجده سنة 731هـ/1330م؛ ميدان بركة الفيل وأنشأه السلطان كتبغا سنة 694هـ/1294م؛ ميدان المهارة، وكان من إنشاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 720هـ/1320م، واستمر اللعب فيه حتى عهد السلطان فرج بن برقوق (801-815هـ/1398-1412م)، وغيرها³... وشاهد الرحالة القشتالي طافور Tafur (القرن الخامس عشر الميلادي) الميدان الذي تمارس فيه لعبة الكرة والصولجان فوصفه

1- أمين الريحاني، قلب العراق رحلات وتاريخ، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص191.

2- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، الملاعب في عصر السلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2002م، ق1، ص ص10-11.

3- نفسه، ص ص16-23.

قائلا: "...كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء، وعلى جانبي الميدان عدد كبير من الفرسان..."، حيث شاهد السلطان وأمراء المماليك يلعبون هذه اللعبة¹. أما عن أدوات وطريقة اللعب، فكانت تُستخدم في اللعب عصا الصولجان أو الجوكان، لضرب الكرة والتقاطها، والصولجان هي عصا مدبونة يبلغ طولها نحو أربعة أذرع، وبرأسها خشبية مخروطية محدودة تزيد عن نصف ذراع؛ بينما كانت كرة اللعب مصنوعة من مادة خفيفة كالفلين ونحوه، فتلقى الكرة في وسط أرض الميدان، ويتسابق الفرسان لاجتذابها أو التقاطها بالصولجان أو الجوكان، والذي يسبق إليها ويرسلها في الهواء في ذلك تكون له الغلبة².

لكن حتى وإن كانت لهذه اللعبة الرياضية من الفوائد ما ذكرت بالنسبة لممارستها خلال العصر المملوكي، إلا أنه كانت لها أضرار في نفس الوقت، أدت ببعضهم إلى الوفاة، على غرار ما حدث للسلطان سعيد بركة خان³ بن الظاهر بيبرس سنة 678هـ/1280م، حين قصد ميدان القلعة للعب الكرة، أين تقنطر (أي سقط عن ظهر فرسه إلى ما قدامها) به الفرس وسقط فانكسر ضلعه ومات في حينه⁴، أو ما حدث للأمير بيدرا المنصوري قلاوون (ت.693هـ/1293م) الذي أصابه السلطان الأشرف بالكرة فقطع حاجبه وجرى الدم، فتشوش السلطان لأجله، وأراد أن يوقفه عن اللعب، فحلف عليه أن لا يفعل⁵.

1- سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م، ص81.

2- نفسه، صص81-82/ شريف عبد الحميد محمد عبد الهادي، نياية طرابلس الشام في عصر سلاطين المماليك (688-922هـ/1289-1516م) دراسة تاريخية، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، 2018م، صص153-154/ لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، ص245.

3- ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان؛ كان نائب أبيه على قلعة الجبل قبل أن يخلفه في السلطنة، وقد عهد إليه بها وزوجه بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، حكم ما بين 676هـ/ و678هـ/ 1277-1279م، وكانت مدة حكمه سنتين وشهرين وثمانية أيام، انتهت بخلعه وتنصيب أخيه الأمير بدر الدين سلامش ذو السبع سنوات سلطانا. المقرئ، الخطوط، ج2، ص238.

4- ميزفت عبد الهادي عبد اللطيف وأحمد راوي محمد عبد الجابر، لعبة الكرة والصولجان في مصر الإسلامية من العصر الفاطمي وحتى نهاية العصر المملوكي (358-923هـ/969-1517م)، المجلة الدولية للتراث والسياحة والضيافة IJHTH، العدد2، تصدرها كلية السياحة والفنادق- جامعة الفيوم، ديسمبر 2002م، مج14، ص397.

5- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، المرجع السابق، ق1، ص31.

2.3- المقامطة¹ بالأأيادي والصراع فوق الخيل: كانت هذه اللعبة من ألعاب الفروسية التي احترقها فرسان الخيل في عصر سلاطين المماليك، وهو فن لا بد للفارس من تعلمه وتعليمه² (الشكل1: صورة للمقامطة على ظهر الخيل)³، وهي على خمسة أنواع أو حالات:



أ- المقابلة أول النزاع؛ في هذه الحالة إذا أتاك من على اليمين، فاصبر له حتى يمد يده إلى صدرك ليخلعك من الفرس، فامسك بيدك ملكمه بقوة، وركب مرفقك على زنده، ولا تتعدى به؛ فإنه يركب وراءك. ونم على زنده وافرك ملكمه فإنه يستغيث أو يقع على الأرض، وهذه من مَلَحِ النزاع.⁴

1- قمتله: شد يديه ورجليه، فُيْمَطَ الأسير: إذا جُمع بين يديه ورجليه. أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج7، 385/ قمت على شيء قمطا جيدا: ضغط عليه بيده ضغطا جيدا. رنهارت ببتران دوزي، تكلمة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، مراجعة: جمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ط1، 1997م، ج8، 382.

2- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، الملاعب في عصر سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2006م، ق2، ص23.

3- ابن أخي خزام، "كتاب المخزون جامع الفنون"، مخطوط في ركوب الخيل والصيد والفنون العسكرية، بتاريخ: 1470م، المكتبة الوطنية الفرنسية: قسم المخطوطات العربية، رقم 2824، ورقة78؛ لتحميل المخطوط يمكن العودة إلى الرابط التالي: <https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b8422958j.image> وهو من المخطوطات المُخْتَلَف في مؤلفها، فحسب ما هو مذكور في مكتبة gallica الإلكترونية، فإن المؤلف المنسوب إليه يُدعى ابن أخي خزام، وقد تقيدت بما هو مذكور: (MUHAMMAD ibn Ya'qūb ibn al-Ḥozām) (Abū 'Abdallāh), Kitāb al-maḥzūn ḡami' al-funūn)؛ غير أن سنة التأليف المذكورة هي 1470م كما هو وارد، بينما محمد بن يعقوب بن أخي خزام الختلي المشهور بتأليف الكتب عن الخيل والفروسية توفي نحو 250هـ/864م؛ ينظر: مخطوطة "كتاب الفروسية والبيطرة" على الرابط الآتي: <https://www.alukah.net/library/0/88552> اطلع عليه بتاريخ: 2022/04/02م؛ وقد جاء في الورقة الأولى من المخطوط بأن المؤلف هو الصحابي مقداد بن أسود (رضي الله عنه)، لكن أستاذي ذلك؛ فحتى وإن اشتهر هذا الصحابي بمعرفته ودرايته بأمور الفروسية والحرب، فإن لغة المخطوط ومصطلحاته والرسومات وأساليب الفروسية وطرقها وحيلها الواردة فيه بعيدة عن عصره؛ لذا يمكن أن أنتهي إلى القول بأن هذا المخطوط هو تراكم لأفكار سابقة استقاها المؤلف عن غيره وأضاف إليها من معرفته وثقافته عصره؛ وبالتالي يبقى مؤلف هذا المخطوط مجهولا؛ علما أن هناك تشابها بين هذا المخطوط ومخطوط آخر من حيث العنوان تقريبا، حيث جاء بعنوان: "المخزون لأرباب الفنون"، فضلا عن الأشكال والرسومات الموجودة فيه والموضوعات والعناوين، ينظر: هامش رقم 84 من المقال، وموضوع كهذا يحتاج إلى دراسة مقارنة مستقلة حتى لا أخرج عن السياق.

4- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، المرجع السابق، ق2، ص23.

ب- الثاني من النزاع؛ في هذه الحالة إذا جاء الخصم من ورائك ومسك كتفك وأراد أن يأخذك من الفرس؛ فلف ذراعك عليه، ونم على السرج؛ فإنه مَنكي (منهزم ومغلوب)¹.
ت- إذا كنت في الأرض وجاءك بسيف أو بطبر (الفأس أو البلطة) أو بدبوس وأراد أن يضربك؛ في هذه الحالة اعمد إلى رجله الشمال مع فردة الركاب والويها معها؛ فإنه لا يقدر أن يضربك ويقع إلى الأرض؛ يقول ابن أخي خزام: "إذا أتى الفارس بطبر أو بسيف أو بدبوس وأنت راجل على الأرض وأراد أن يضربك فلا تخف منه واعمد ببديك الاثنتين إلى ركابه واقمطه ببديك الاثنتين مع رجله واحذر أن لا تنفلت رجله من الركاب وافرك ركابه مع رجله إلى داخل بطن الفرس والوي كعب رجله إلى برا فإنه يستغيث ولا يقدر أن يضربك بشيء ولا يصل إليك وكلما ساق من حرارة الوجد الفرس أجرى معها فإنه لا يمكنه إلا أن يرمي نفسه إلى الأرض فتكون حاضرا له في الوقوع اكبس عليه ولا تخليه يقوم من الأرض واحذر من الذي في يده..."². (الشكل2: إذا كنت راجلا والفارس طبر)³.



ث- إذا أتيت من بيت الخسارة عن الشمال وأردت أن ترميه؛ فلا تمسكه من رأس كتفه ما يقع، بل طول يدك إلى كتفه اليمين واجذب به بقوة، فإنه يقع ولو كان أعفى (أقوى) منك⁴.
ج- إذا كان الخصم أقوى منك ومسكته؛ فاجذبه إليك وأخرج برجلك من الركاب وارفس بطن فرسه؛ فإنه يقع⁵.

3.3- رمي القبق: هي من ألعاب الرماية التي اشتهرت في مصر زمن المماليك، وشغف بها سلاطينهم؛ و"القبق عبارة عن خشبة عالية جدًا، تنصب في براح من الأرض، ويعمل بأعلاها

1- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، المرجع السابق، ق2، ص23.

2- ابن أخي خزام، المصدر السابق، ورقة61.

3- ابن أخي خزام، المصدر السابق، ورقة61.

4- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، المرجع السابق، ق2، ص23.

5- نفسه، ص23.

دائرة من خشب، وتقف الرماة بقسميها وترمي بالسهم جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك، تمرينا لهم على إحكام الرمي. ويعبر عن هذا بالقبق، في لغة الترك¹، وهي القرعة العسلية التي تحل محل الدائرة الخشبية أحيانا، ومنها استمدت تسميتها، وتكون إما من ذهب أو فضة، ويكون في القرعة طير حمام، ثم يأتي الفرسان المتبارون ويرمون الهدف بالنشاب أو السهم وهم على ظهور الخيل، فمن أصابها منهم أو أطار الحمام كان هو الفائز، وحاز على القرعة المعدنية نفسها²، بينما المؤرخ جيمس وارسون بأن المقصود بالقبق الهدف المرتفع، وأن ممارسة الرماية عليه كانت من أحب الرياضات إلى أصحاب الرتب والمناصب العليا من الممالك³.



ويبدو بأنه خُصص للعب القبق ميدان مثلما خُصص لغيرها من الألعاب الرياضية الأخرى كالكرة والصولجان؛ فقد تناول المقرئ في خطته ميدان القبق⁴، الذي رُتبت فيه هذه اللعبة أيام السلطان الظاهر بيبرس احتفالاً بابنه السعيد بركة يوم أركب شعار السلطنة، وخُتن مع ألف وستمئة وخمس وأربعين صبيا من أولاد الناس⁵ سوى أولاد الأمراء والأجناد⁶، ويتضح بأن هذا الميدان قد اكتسب تسميته هاته من هذه اللعبة أو الرياضة التي نظمت فيه. (الشكل 3: فارسان يلعبان القبق)¹

1- المقرئ، الخطط، ج2، ص111.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص 82-83.

3- جيمس وارسون، المرجع السابق، ص172.

4- هذا الموضوع خارج القاهرة من شرقها فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر التي تحت الجبل الأحمر، ويقال له أيضا: الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق، وهو ميدان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، الذي بنى به مصطبة في شهر محرم سنة 666هـ/1267-1268م، عندما احتفل برمي النشاب وأمور الحرب وحث الناس على لعب الرَّمج ورمي النشاب ونحو ذلك، وصار ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها إلى العشاء الأخيرة وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان. المقرئ، الخطط، ج2، ص111.

5- كانت فرقة من الجيش المملوكي تدعى بأولاد الناس، وقد شملت أبناء أمراء المماليك فقط المملوكين بدون عبيدية. أبوهم كان مملوكا وأصبح حرا فهم أحرار، ولهم تربية وأدب، اشتهر منهم: المؤرخ المعروف ابن تغري بردي وغيره الكثير...محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص26.

6- المقرئ، الخطط، ج2، ص302.

ويقدم لنا المقريري في خطه نصا يصور لنا كيف كانت تجري تقاليد ومراسيم لعبة القبق في حضرة السلطان يقول: "...وقد استعدّ العسكر بأجمعه لرمي القبق، ورسم للحجاب بأن لا يمنعوا أحدا من الجند، ولا من الممالك، ولا من غيرهم من الرمي؛ ورسم للأمير بيسري والأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح²، أن يتقدّما الناس في الرمي، فاستقبل الأمير بيسري القبق وتحت سرج قد صنع قربوسه الذي من خلفه وطينا، فصار مستلقيا على قفاه، وهو يرمي ويصيب يمنا ويسرة، والناس بأسرهم قد اجتمعوا للنظر حتى ضاق بهم الفضاء، فلما فرغ دخل أمير سلاح من بعده، وتلاه الأمراء على قدر منازلهم واحدا واحدا، فرموا. ثم دخل بعد الأمراء مقدّمو الحلقة، ثم الأجناد والسلطان يعجب برميهم، وتزايد سروره حتى فرغ الرمي، فعاد إلى مخيمه ودار السقا على الأمراء بأواني الذهب والفضة والبلور يسقون السكر المذاب، وشرب الأجناد من أحواض قد ملئت من ذلك، وكانت عدتها مائة حوض، فشربوا ولهوا واستمروا على ذلك يومين..."³.

4.3- اللّعب بالرّمح: تكمن أهمية الرّمح باعتباره من الأسلحة الحربية المستخدمة في الطعن، وهو نوعان: نوع يصنع من القنا، وهو قصب مسدود من الداخل، ينبت في بلاد الهند؛ ونوع يصنع من الخشب كالزّان وغيره...ويطلق على الحديد أو النصل البارز المنتصب أعلى الرّمح السنان، وعلى الذي في أسفله النّج والعقب ويسمى الذابل⁴، وجاء في كتاب المخزون وجامع الفنون باب حول "ابتداء تعلم عمل الرّمح وصناعته وعمل الموادين والبند والتّسريح..."⁵.

وللرمح فوائد في السلم والحرب، ففي أوقات السلم يعرف به عمق النهر، كما يستعمل في نفذ الشجر من الثمار من دون أن تتكبد عناء الصعود إليها واقتطافها، فضلا عن سنامه الذي يساعد في قدح النار مع حصاة، إضافة إلى استخدامه في صيد الطرائد⁶.

1- ابن أخي خزام، المصدر السابق، ورقة 27.

2- هو لقب يطلق على الذي يتولى سلاح السلطان أو الأمير. محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص 20.

3- المقريري، الخطط، ج 2، ص 112.

4- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، صُبْحُ الأعيان، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1331هـ/1913م، ج 2، ص 133-134.

5- ابن أخي خزام، المصدر السابق، ورقة 42.

6- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، المرجع السابق، ق 2، ص 86.

أما فوائده في زمن الحرب فهو كما يقول ابن قيم: "بمنزلة الصياصي للوحوش تدفع بها من يقصدها وتحارب بها..."¹، ويذكر العيني في السيف المهند أن للرمح أندابا كثيرة، من جملتها ندب يشتمل على اثنتي عشرة منزلة (ذكر إحدى عشرة) وهي: الترتيب، الفتح، الكشف، المقص، الكلاب البراني، الكلاب الجواني(الداخلي)، الكلاب الميمنة، الكلاب الميسرة، السلسلة، السيسرة الطويلة، حفظ الفارس؛ ويذكر أيضا بأن أول من استعمل الرُمح هو سيدنا إسماعيل (عليه السلام) أو تعلمه من جُرهم، ثم استمر استخدامه بين الناس، وإن أدخلت عليه لاحقا أساليب وتقنيات جديدة على اللعب والمنازلة به والقبض عليه، فحدثت أندابه في زمن المماليك لاسيما على عهد الناصر حسن إلى عهد الظاهر برفوق، حتى أصبح اللعب به في هذا العهد يكاد يخالف لعب المماليك الأوائل في معظم حركاتهم.²

وكان تدريب المماليك على لعب الرُمح يتم في الميدان المخصص للعب الكرة، فنجد مثلا نائب دمشق اقبغا التمرزي قد لعب الرُمح في ميدان الكرة بنيابته³؛ أما طريقة حمل الرُمح في حالة المباراة، فللفارس الرامح إما أن يأخذه على قدر ذراع من سنانة ويجر مؤخره من ورائه ليربع خصمه، أو يأخذه من وسطه ثم يرفعه في سيره ليرى خصمه أنه متهاون به، وإن شاء أخذه على هيئة الطعن ليدهشه به؛ أما الفرس الذي على الرامح امتطاؤه في لعب الرُمح، فيجب أن يكون "شديد القوايم (القوائم) ثابت (ثابت) الرقبة مطوعاً للمهماز (حديدة في مؤخرة حذاء الراكب) وإذا لم يكن مطوعاً فلا يُمكنه من اللعب ولا يكون قوي الرأس فيعبه به في أماكن التهلكات بغير اختياره وليكن لجامه على قدر احتمال الفرس..."⁴، هادئ النفس، ساكن الجري، سريع، لين الأعطاف، ريش الأخلاق، ليس بطموح أو عثور، مطواعا، سليما.⁵

1- ابن قيم الجوزية، الفروسية المحمدية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، د.ت، ص82.

2- العيني، المصدر السابق، ص230/ مبارك محمد الطراونة، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 784-1382هـ/1516م، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2010م، ص355.

3- نفسه، ص ص354-355.

4- ابن أخي خزام، المصدر السابق، ورقة 45.

5- نبيل محمد عبد العزيز أحمد، المرجع السابق، ق2، ص91.

ومن أشهر ألعاب وتدريبات استخدام الرُمح في دولة المماليك أذكر:

أ- لعبة كسر العامود: يستهدف الفارس برمحه في هذه اللعبة كسر العامود الخشبي المثبت أمامه في الأرض، لكن عليه أن يتخذ رمحا من مِقْدَان يكون طوله باعين ويشمعه حتى لا يصيبه فيسلخ جلده، ويتخذ له نصلا حديدا يزن رطلين...ويختار فرسا غليظ القوا قوي ثابت الرقبة، ثم يقطع من الجبل عامود على قدر قوته، ويحفر له في الأرض مقدار ذراع ويعمل بالجبس¹. ويبدو بأن التدريب على كسر العامود من التدريبات الأولية التي يتلقاها الفارس المملوكي خلال المراحل الأولى من تعلم الفروسية، فيتدرب على استعمال السلاح على ظهر الفرس -وذلك بعد فراغه من تعلم استخدام السيف راجلا بعدة أشكال وأوضاع- ثم ينتقل بعد ذلك إلى التدريب على التلويح بالسلاح وهو راكب لفرسه مع تثبيت القدم - تجنباً لاختلال توازنه وانزلاق قدمه من الركاب ثم سقوطه- ويلي ذلك الجري السريع مسافة قصيرة مع رفع السلاح في آخر لحظة ممكنة، ليقطع به وهو في سرعته عامودا من الخشب مقاما رأسيا في الأرض، وتتكرر العملية إلى أن يصبح ارتفاع الجزء الباقي من العامود فوق سطح الأرض قدما واحدا .

أما السبب الكامن من وراء التمرن على لعبة كسر العامود فيرجع إلى أن الإفرنج باتوا في قتالهم مكبلين على الفرس بأربع كلاليب من وراء ومن قدام ومن الصوبين، فإذا طعنه المسلم لم يتمكن من إسقاطه، فابتكرت هذه التقنية أو الحيلة من طرف المعلمين، إذ ينتج عنها وقوع الفارس والفرس، وهذه من أفعال الفرسان التي لم يتوصل إليها الأعداء .



ب- ألعاب إدخال الرُمح في الحلقات: وهي على عدة أبواب: ففي أحدها يضع رمحه على كتفه الأيمن ويمينه إلى الخلف، ورمحه بين أذني فرسه تجري، كذلك حتى يأخذ الحلقة².

1- صفحة من مخطوط في ألعاب الفروسية، (القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) ، متحف الفن الإسلامي، القاهرة: رقم القطعة: 18019، رقم الورقة غير واضح، من موقع: اكتشف الفن الإسلامي، للاطلاع عليها يمكن زيارة الرابط التالي: https://islamicart.museumwnf.org/database_item.php?id=object;ISL;eg;Mus01;34;ar، اطلع عليه بتاريخ: 2022/03/27م.

2- مجهول، كتاب المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرُمح وبنودها، كتاب عن الفروسية وركوب الخيل واستخدام الرماح والنبال وفنون القتال والتعبئة، مؤرخ بعام 986هـ، بخط شاهين الزيني (كما جاء في ورقة 112)، المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 2450، ورقة 44: لتحميل هذا المخطوط ينظر الرابط التالي: <http://wadod.net/bookshelf/book/2147>؛ وهذا المخطوط قام بتحقيقه المؤرخ عمر تدمري



وفي باب آخر تنصب خمس قوائم على كل واحدة منها حلقة، وتربط بكل حلقة قطعة حرير ملونة فإنها تُحَسَّنُ بذلك، فإن أخذ منها فليرفع رأس الرُمح إلى أعلاها، فإن شاء أخرجها مع الرُمح، وإن شاء أمسكتها خرقة الحرير التي فيها حتى

يتم الانتهاء من رفع الحلقات الخمس (الشكل5 رفع الحلقات الخمس بالرُمح).¹



وفي باب آخر أن توضع فوق رأس رجل كرة وتطعن بسنان الرُمح (الشكل6: طعن الكرة فوق رأس الرجل)²، والمبتغى من ألعاب الرُمح هذه هو إصابة الهدف، وإن كانت للتسلية أيضا، خاصة في اللعبة الأخيرة، فإنَّ باطنها تدريبي عسكري تُجنى ثماره في ميدان المعركة.

وقد ظل الرُمح سلاحا مهما وأساسيا عند المماليك حتى أواخر عهد دولتهم، فنجد أنه في سنة 909هـ/1504م لعب الرَّمَّاحَة الرُمح أمام السلطان قانصوه الغوري³ عند زاوية الشيخ أبي العباس الحرار، فجلس السلطان في المقعد وحوله الأمراء، ورسم للرماحة بأن

ومعلوماته كالتالي: كتاب المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرُمح وبنودها، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2016م، 167ص، وقد توصل إلى أن مؤلفه هو أحد تلاميذ "نجم الدين حسن بن أيوب" المعروف بالرمَّاح الطرابلسي (ت 694هـ/1295م) أحد مشاهير معلّمي الفروسية.

1- نفسه، ورقة 45.

2- نفسه، ورقة 47.

3- الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري الأشرفي، وهو السلطان السادس والأربعون من سلاطين المماليك، والعشرون من السلاطين الجراكسة: من أصل جركسي، من ممالك الأشرف قايتباي، وهو من أعتقه، تولى السلطنة سنة 906هـ/1501م حتى سنة 922هـ/1516م. ينظر: ابن إياس، المصدر السابق، ج4، صص2، 4/5، صص70-71.

يسوقوا قدامه في الميدان فساقوا، فلما ساقوا عابت عليهم الممالك القرانصة¹ لعبيهم، لابتعادهم عن الطريقة التقليدية في ذلك²، وهذا يدل على أن الرُّمَح ظل يحتل مكانة مرموقة بين الأسلحة، على الرغم من أن القرن السادس عشر كان العصر الذهبي للأسلحة النارية، وتطور الفكر العسكري.

خاتمة: ارتبطت ألعاب ورياضات الفروسية ارتباطا وثيقا بالمجال العسكري في دولة الممالك، فقد رأينا اهتمام السلاطين بها، بل وإتقانهم للعديد منها وبراعتهم فيها، فضلا عن حرصهم على تنظيم مسابقاتها والإشراف على منافساتها، والتشجيع والحض على تعلمها وممارستها، وإقامة الميادين والساحات لها، فكان أن ساهم كل ذلك في بناء جيش قوي استطاع الوقوف في وجه الغزاة والتصدي لهم، حيث يمكننا القول بأن تلك الانتصارات التي أحرزها الممالك ضد الصليبيين ثم المغول التي كانت هذه التدريبات العسكرية المحكمة في إطار هذه الألعاب أحد عواملها الرئيسة-من غير شك- هذا من جهة؛ أكثر من كونها وسيلة للتسلية والترفيه؛ وهكذا صارت أسلوبا وطريقة لخلق روح التحدي والمنافسة بين الفرسان الممالك، وتطوير القدرات وصقل المواهب المتعلقة بالفنون القتالية على ظهور الخيل، وما جانب الفروسية إلا نوع شمل أنواعا كثيرة؛ ومن هنا يمكن اعتبار الممالك مدرسة فرضت نفسها عن جدارة واستحقاق في تاريخ ألعاب ورياضات الفروسية، حيث طوروا فنونها وأساليبها وتقاليدها مع ابتكارهم لأخرى جديدة، فاستطاعوا بنجاح أن يوظفوا كل ذلك في تدريباتهم العسكرية نظريا من خلال التأليف وتطبيقا من خلال الممارسة؛ غير أن كل ما قام به الممالك في هذا المجال لم ينفع أمام الآلة الحربية العثمانية المتطورة عهدها، حيث استطاعت هذه الأخيرة هزيمتهم في مرج دابق والريدانية مُطويةً بذلك آخر صفحات الممالك، وناقلةً الشرق من العصر الوسيط إلى العصر الحديث.

1- هي تسمية عُرف بها الممالك القدامى، تميزا لهم عن الممالك الجدد الجلبان، وعن أولاد الناس. محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص122.

2- ابن إياس، المصدر السابق، ج4، ص60.